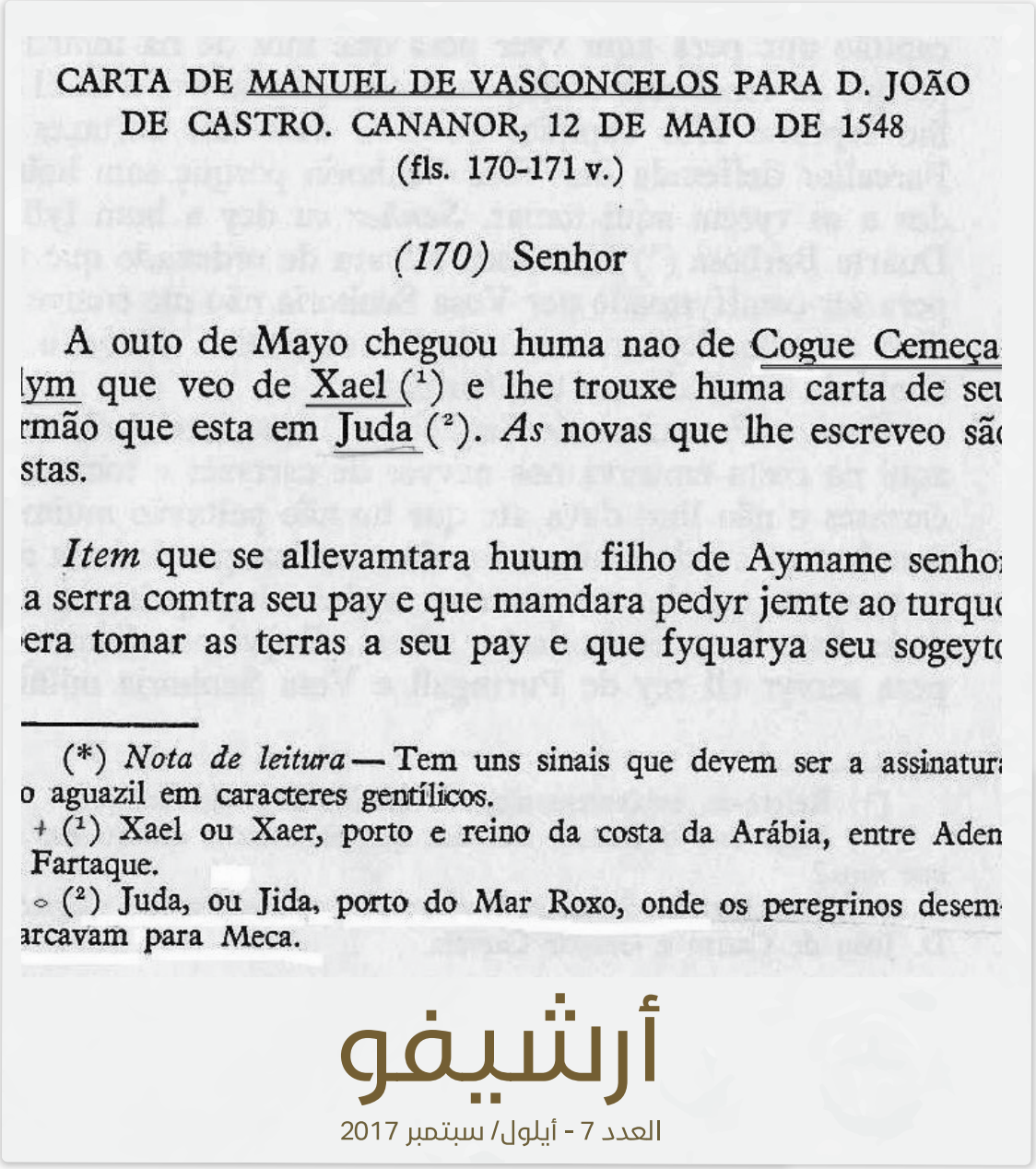

CARTA DE MANUEL DE VASCONCELOS PARA D. JOÃO DE CASTRO. CANANOR, 12 DE MAIO DE 1548
(fls. 170-171 v.)

(170) Senhor

A outo de Mayo cheguou huma nao de Cogue Cemeça lym que veo de Xael (1) e lhe trouxe huma carta de seu rmão que esta em Juda (2). *As* novas que lhe escreveo sã stas.

Item que se allevamtara huum filho de Aymame senho a serra comtra seu pay e que mamdara pedyr jemte ao turqu era tomar as terras a seu pay e que fyquarya seu sogeyt

(*) *Nota de leitura* — Tem uns sinais que devem ser a assinatur o aguazil em caracteres gentílicos.

+ (1) Xael ou Xaer, porto e reino da costa da Arábia, entre Aden Fartaque.

○ (2) Juda, ou Jida, porto do Mar Roxo, onde os peregrinos desem arcavam para Meca.

أرشيفو

العدد 7 - أيلول/ سبتمبر 2017

وثيقة وحكاية

جدّة.. قطب الرّحى

د. محمد السلمان

تنبع أهميَّة البحر الأحمر منذ أقدم العصور من موقعه المتوسّط بين ثلاث قارات، وهو بذلك كان شريانًا حيويًا للمواصلات والتبادل التجاريّ والحضاريّ الثقافيّ، ومعبرًا للتأثيرات الدينيَّة بينها. كما كان هذا الموقع السَّبب في ازدهار الدول والممالك الواقعة على سواحله، بسيطرتها على سُبل التجارة التي تمرّ به ذهابًا وإيابًا، وبخاصة إبّان فترة الدّول الإسلاميَّة الَّتي سيطرت على السّاحلين العربيّ والأفريقيّ.

أضف إلى ذلك، أنَّ البحر الأحمر يعدّ الذراع الأيسر للمحيط الهندي، الّذي يصل البشر والتجارة فيما بين قارتي آسيا وأفريقيا بأوروبا، ضمن شبكة التجارة الدولية البحرية بين الشرق والغرب خلال الفترة التي أطلق عليها العصور الوسطى والحديثة، أو ما قبل الكشوف الجغرافيَّة الأوروبيَّة وبعدها.

وبسبب موقع البحر الأحمر وتلك المميّزات الجغرافية – الاستراتيجية، جاء إقبال الدول الأوروبية على السَّيطرة على هذا البحر في مطلع العصور الحديثة، وخصوصًا بعد نجاح الكشوف الجغرافية البرتغالية في الوصول إلى رأس الرجاء الصالح على يد المستكشف (1)(فاسكو دا جاما- Vasco Da Gama1)، وبدء تحقيق بعض الأهداف الاقتصادية من وراء هذا الكشف المهمّ بالنسبة إلى البرتغاليين تحديدًا، في محاولة السيطرة على طرق التجارة الدولية في تلك العصور واحتكارها، وما صاحبها من تنافس شديد ودموي بين القوى الإسلامية والبرتغالية، ثم بين البرتغاليين والقوى الأوروبية الأخرى فيما بعد.

وبما أنَّ من أهمّ أهداف الكشوف الجغرافية البرتغالية التي اتخذت صفة التوسّع الاستعماري الاحتكاري للتجارة الدولية والسيطرة على طرقها، هو السيطرة على طرق التجارة الدولية واحتكار تجارتها، فقد جاءت ضمن هذا السياق مشاريع البرتغاليين العديدة في السيطرة على طريق البحر الأحمر التجاري اقتصاديًا وسياسيًا، بل وحتى دينيًا، لوجود الحبشة المسيحية على سواحله الجنوبية الغربية، وضرب أيَّة قوة إسلامية أو غير إسلاميّة، ومنعها من السيطرة المطلقة على هذا البحر بموقعه الإستراتيجي المهمّ بالنسبة إلى الإمبراطورية البرتغالية في المشرق.

لذا، ظلَّ ذلك يشكّل جزءًا مهمًا وهدفًا حيويًا في سياسة البرتغاليين التوسّعية في البحار الشّرقية

عمومًا منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي. وهذا ما أشار إليه قطب الدين النهروالي حين حذَّر من سيطرة البرتغاليين بعسكريّتهم وسلاحهم الجديد (المدفعية البحرية) على عدن والبحر الأحمر، وأشار إلى أنّ ذلك سيمنع «سفائن الهند من الوصول إلى بنادر الحرمين الشريفين»، ويقصد بذلك ميناء جدّة بالذات.

ولهذا السَّبب، ركَّز البرتغاليون استراتيجيتهم الهجوميَّة على البحر الأحمر ضدّ مينائي عدن وجدة بالذات، لأنهما أهمّ زوايا المثلث الذهبي الاقتصادي الذي يربط شمال البحر الأحمر بجنوبه، وينتهي عند قاعدة المثلث الأخيرة، وهي السويس.

توجد ضمن ملايين الوثائق في الأرشيف البرتغالي الرئيس في العاصمة البرتغالية لشبونة، مجموعة تسمى (ساو لورينسو- São Lourenço)، وهي جزء من مجموعة (وثائق ما وراء البحار البرتغالية)، التي تصدر عن مركز الدراسات التاريخية لما وراء البحار. قام بطباعة هذه الوثائق معهد البحوث العلميَّة الاستوائيَّة، بينما تمَّ تحقيقها وتحريرها وتنسيقها للطَّبع على يد الباحثة المتخصّصة في هذا النوع من الوثائق (ماريا دي لوردس ليلاندي)، وصدرت في العام 1983 في لشبونة.

ومن هذه الوثائق التي نتناولها في هذه الحكاية، مجموعة رسائل متبادلة بين المدعو خواجة شمس الدين الغيلاني أو (الكَيلاني)، وهو تاجر مسلم معروف في غرب الهند في خلال فترة السيطرة البرتغالية في النصف الأول من القرن السادس عشر، ونائب الملك البرتغالي في الهند آنذاك، المدعو(2)(جواو دي كاسترو -D. Joao de Castro).

تولّى الخواجة شمس الدين الكَيلاني منصب مدير شؤون صادق خان حاكم منطقة (Belgaum) الهندية في مملكة بيجابور الإسلامية (3)، وكان رجلًا غنيًا وذا قوة ومنعة في الهند، ولكنَّه كان على خلاف مع صاحب مملكة عادل شاه الإسلاميَّة آنذاك (إبراهيم عادل شاه)(4)، ثم أصبح شمس الدين مسؤولًا عن خزانة مملكة تطلق عليها الوثيقة البرتغالية اسم «أسيد». وبعد انهيارها، بقيت تلك الأموال في يد خواجه شمس الدين في كنانور، إلا أنَّ حاكم عام الهند البرتغالي المدعو (مارتيم أفونسو دي سوزا 1542) (Martim Afonso de Sousa-1545)(5)، حاول أكثر من مرة، بالتَّهديد، أن يجعله يتبرع ببعض ذاك المال للبرتغاليين.

كما أنَّ شمس الدين كان صديقًا حميمًا للقائد البرتغالي (روي كونزالوس كامينا -Ruy Gonçalves Caminha)، مستشار مجلس مدينة «كَوا»، عاصمة الإمبراطورية البرتغالية في الشرق (6).

تتناول الرسائل علاقة هذا التاجر المسلم بالبرتغاليين في الفترة ما بين 1546-1548 على وجه الخصوص، وهي تعقّب الفترة المضطربة في العلاقة بين العثمانيين والبرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر، وخصوصًا بعد نجاح حملة سليمان باشا الخادم في الوصول إلى «ديو» في غرب الساحل الهندي والتصدي للبرتغاليين هناك، رغم فشلها في تحقيق إنجاز مهمّ ضد البرتغاليين (7)، وما تبع ذلك من توجّس البرتغاليين الدائم وترقّبهم لوصول حملات عثمانية أخرى، انطلاقًا من موانئ البحر الأحمر، وبالذات من جدة، باعتبارها القاعدة الحربية البحرية الثانية للعثمانيين في ذاك البحر بعد السويس.

الوثيقة الأولى:

الوثيقة الأولى هي رسالة بعث بها الخواجة شمس الدين الكَيلاني من ميناء «كنانور» غرب الهند، وكان يقيم فيه ويزاول عمله هناك كتاجر مسلم تحت سمع البرتغاليين وبصرهم، وبالتعاون معهم، وبتسهيلات منهم أيضًا. وقد أرّخت تلك الرسالة في 23 مايو 1546، وهي مرسلة إلى نائب الملك البرتغالي في «كوا» آنذاك وهو الدوم(8)(جواو دي كاسترو- D. João de Castro).

تقول الرسالة في بعض أجزائها على لسان الخواجة شمس الدين: «وصلت سفينة كانت مرسلة إلى قشم(9) التي كانت فيها ثورة آنذاك، وهناك جاء رجل من طرف أخي عبد الرقيب (عبد رقيب)، وقد علمت منه أنه في تاريخ 21 مايو لم يصل أحد لتولي أمر منطقة قشم، نظرًا إلى قيام ثورة لأحد المتمردين في أراضي (شيل)(10) المضطربة. كما أرسل إليَّ أخي عبد الرقيب الذي كان في جدة رسالة عن نية القائد البحري التركي(11)(سنان جودي- SenãoJude) في جدة بتجهيز عشرة سفن حربية، لإرسالها إلى الهند (لمحاربة البرتغاليين)، إلا أنَّ الموت عاجله بسبب انتشار الأمراض في المنطقة بعد مكوثه في البحر الأحمر لمدة ثلاثة أشهر، فتفرَّق عنه جنوده، وبقي عدد قليل منهم في السويس. وهذه الأخبار مؤكّدة، ولا يوجد شيء آخر يقال. أما بالنسبة إلى الأتراك، فليس لدينا أخبار عنهم حاليًا، سوى تلك التي جاءت بها قافلة الحج من مصر في هذا الموسم. وهذه هي أخبار المضيق - باب المندب - ولا يوجد على الأرض شيء جديد، وأنا تحت أمر سعادتكم فيما لو تودّون مني فعل أيّ شيء آخر، فأنا مستعدّ له تمامًا» (12).

الوثيقة الثانية:

ومن مجموعة تلك الوثائق كذلك، هذه الرسالة التي أرسلها أيضًا المدعو (مانويل دي فاسكونسيلوس) من «كنانور» إلى (جواو دي كاسترو) في 18 أغسطس من العام 1546،

ويقول في الجزء الأوَّل منها: «في 17 أغسطس، وصل إلى كنانور (محمد دليم) من معارف خواجة شمس الدين، وقد وصل من جدة ومعه أخبار قد تسلَّمها عبر رسائل من شقيق شمس الدين الذي يعيش الآن في جدة، وهذه الأخبار تقول إنه في السنة الماضية، مات سنان جودي الذي انضمّ إلى قائد القوات البحرية التركية» (13). هذه الرسالة أساس معلوماتها مقتبس من رسالة خواجة شمس الدين التي أرسلها إلى (جواو دي كاسترو) بتاريخ 17 أغسطس 1546، وتتحدَّث عن بعض أخبار مضيق باب المندب، وقد اطّلع عليها بالطبع (مانويل) من باب تدرج السلّم الإداري البرتغالي في إيصال الأخبار التي تهمّ البرتغاليين، ولها سرية عسكرية وسياسية، للمناصب العليا، كي تتّخذ القرار المناسب بشأنها، ذلك أنَّ شمس الدين يذكر جدة أيضًا في رسالته تلك التي أرسلها إلى كاسترو، موضحًا أنَّ تلك الأخبار المؤكّدة جاء بها المدعو محمد دليم، وهي ضمن مجموعة الوثائق محطّ البحث نفسها (14)، ويذكر فيها أنَّ هناك رجلًا يهوديًا كان يعمل لصالح الأسطول (15) قُتل في منطقة قشن اليمنية (16).

د. محمّد السّلمان: باحث بحريني متخصّص في التاريخ، أعدّ أطروحة دكتوراه في جامعة هال البريطانية حول المظاهر السياسية والاقتصادية للحكم البرتغالي في الخليج. صدرت له مجموعة من الكتب التاريخية والترجمات.
للتواصل عبر الإيميل: adoommoon@gmail.com